

المطلب الأول: علوم القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كتاب الله ودستور المسلمين، وهو معجزة الإسلام الخالدة التي تصلح لكل زمان ومكان، وقد أنزله الله على قلب حبيبه محمد ﷺ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، لذا فقد روي عن سيدنا عثمان ؓ قال، قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلّم القرآن وعلمه» (1).

وفي أواخر العهد العثماني كانت مكة المكرمة مقصداً للطالبين في علوم القرآن إذ اشتهر فيها علماء أفذاذ أبرزهم العلامة المقرئ الشهير السيد أحمد بن حامد بن عبد الرزاق التيجي المدرّس بالحرمين الشريفين، وبمدرسة الفلاح بمكة المكرمة، والمولود سنة 1285هـ، والمتوفى بمكة المكرمة سنة 1368هـ (2)، كان يقرئ طلبة العلم ختمةً كاملة، بقراءة عاصم بروايي أبي بكر شعبة وحفص، وقراءة ابن كثير بروايي البزي وقُنبُل وغيرها من القراءات (3).

وإلى جانب علم القراءات نشط علم التجويد، إذ كان يُدرّس كتاب "مفتاح التجويد" من الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن مصطفى حمدوه القرشي العامري المالكي السناري (ت: 1350هـ) (4)، كما كان الشيخ عبد الغني بشير يلقي التجويد بمدرسة الفلاح (5).

وكان الحرص شديداً لدى العلماء على تحفيظ القرآن الكريم عن ظهر قلب حتى خرّجوا عدداً عظيماً من الحفاظ، وكان من أبرز القائمين على ذلك الشيخ حسن السناري (ت: 1369هـ) بمدرسة الفلاح (6).

وقد ترك لنا علماء مكة آثاراً جلييلة في هذا العلم تمثلت بمجموعة من المؤلفات التي كانت رافداً عظيماً من روافد الفكر الإسلامي المكّي، ومن تلك المؤلفات:

(1) البخاري، الصحيح: 4/1919 رقم 4739، وابن حبان، الصحيح: 1/324 رقم 118.

(2) المالكي، محمد بن علوي، فهرست الشيوخ والأسانيد للإمام السيد علوي بن عباس بن عبد العزيز المالكي الحسني، ط1-1423هـ.

2003م: ص105.

(3) المرجع نفسه: ص105.

(4) ينظر: المرجع نفسه: ص103.

(5) ينظر: المرجع نفسه: ص307.

(6) ينظر: المرجع نفسه: ص101.

- 1- الشيخ عبد الله خياط: التفسير الميسر للثلاثة أجزاء الأخيرة من القرآن الكريم⁽¹⁾.
- 2- السيد عبد الحميد الخطيب: تفسير الخطيب المكي⁽²⁾.
- 3- الأستاذ أحمد محمد جمال: ما وراء الآيات، ومع المفسرين والكتاب، وسلسلة على مائدة القرآن⁽³⁾.

المطلب الثاني: علوم الحديث الشريف

يُعَدُّ الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، فهو المفسر لنصوص القرآن الكريم، والمبين لمعناه بتخصيص عامه، وتقييد مطلقه، وتوضيح مشكله، وتعيين مبهمه، وتعليل محكمه، واتباعه واجب كالكتاب بنص الكتاب⁽⁴⁾، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾⁽⁵⁾.

ولمكة المكرمة بالذات أثر كبير في نشر الحديث الشريف إذ هي بَعْدَ المدينة المنورة- أهم الأمصار فقد أقام فيها حَبْرُ الأُمَّة سيدنا عبد الله بن العباس رضي الله عنهما يروي الحديث الشريف⁽⁶⁾.

وبقي العلماء يتداولون كُتُبَ الحديث وَيُقَرِّئُونَهَا في المسجد الحرام كصحيح البخاري، وصحيح مسلم، وموطأ الإمام مالك، وسنن النسائي، والدارمي، وكان من أبرز هؤلاء العلماء السيد عباس بن عبد العزيز المالكي (ت: 1353هـ)⁽⁷⁾، إذ كان مجازاً ومجيزاً في هذه الكتب كلها⁽⁸⁾، وكذلك الشيخ محمد عابد بن حسين المالكي (ت: 1341هـ) وهو مفتي المالكية⁽⁹⁾، ومنهم الشيخ عمر بن حمدان المحرسي المكي المدني المشهور بمحدث الحرمين الشريفين؛ لأنه كان مواظباً وملازماً لإقراء

(1) الكردي، التاريخ القويم: 538/5.

(2) المرجع نفسه: 542/5.

(3) المرجع نفسه: 15/6.

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط2، مطبعة السعادة، مصر، 1385هـ-1966م: مقدمة المحقق: ص3.

(5) سورة الحشر، من الآية: 7.

(6) ينظر: السباعي، تاريخ مكة: 134-135.

(7) المالكي، فهرست الشيوخ: 11.

(8) ينظر: المالكي، محمد بن علوي، العقد الفريد المختصر من الأثبات والأسانيد، ط1، مطبعة كلية الدعوة

الإسلامية، بيروت، 1420هـ: ص26، ص30.

(9) ينظر: تاريخ مكة للسباعي: 660/2.

الحديث بالمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف⁽¹⁾، وكان يجيز بكتب الصحاح الستة ومسند الدارمي ومسند الإمام أحمد وموطأ الإمام مالك، ومشكاة المصابيح، ومبارق الأزهار شرح المشارق، والجامع الصغير، والشفاء للقاضي عياض، والشمائل للترمذي، والمواهب اللدنية، وسيرة ابن هشام، وألفية العراقي، والنخبة وشروحها، ورياض الصالحين، وأذكار النووي، والحصن الحصين لابن الجزري، وحسن الوفا لآخوان الصفا⁽²⁾، وهناك كثير من العلماء الذين عرفوا برواية المسلسلات بأسانيدهم، كالشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي (ت: 1363هـ)⁽³⁾ والشيخ علي بن فالح الظاهري (ت: 1364هـ) الذي درّس في الحرمين الشريفين وأخذ عنه كبار علماء العصر كالسيد علوي بن عباس المالكي⁽⁴⁾.

ولم يقتصر جهد هؤلاء الأعلام على التدريس فحسب، بل تجاوزه إلى التأليف والتصنيف، وفيما يلي بيان لجهود بعضهم في هذا العلم:

1- الشيخ محمد الخضر الشنقيطي: زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، وشرح موطأ مالك، وأمراء المؤمنين في الحديث، ومنظومة دليل السالك على موطأ الإمام مالك، وزبدة المسالك للإجازة في روايات موطأ الإمام مالك، وفتح القدير المالكي في شرح ألفاظ موطأ مالك⁽⁵⁾.

2- السيد علوي المالكي: ثبت الأسانيد والمسلسلات، والمنهل اللطيف في أقسام الحديث الضعيف، ونيل المرام في شرح أحاديث عمدة الأحكام، وإبانة الأحكام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام، وفتح القريب المجيب على تهذيب الترغيب والترهيب⁽⁶⁾.

(1) ينظر المالكي، فهرست الشيوخ: 45.

(2) المرجع نفسه: 45.

(3) المرجع نفسه: 73.

(4) المرجع نفسه: 252.

(5) الكردي، التاريخ القويم: 534/5.

(6) الكردي، التاريخ القويم: 537/5-538.

3- الشيخ حسن مشاط: رفع الأستار في مصطلح الحديث، والتقارير السنوية في شرح البيقونية، والإرشاد في علم الإسناد⁽¹⁾.

المطلب الثالث: علم العقائد

علم العقائد أو علم التوحيد: (عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ إِثْبَاتِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَةِ بِالْأَدْلَةِ الْيَقِينِيَّةِ)⁽²⁾، ولم يكن السلف الصالح من الصحابة والتابعين بحاجةٍ إلى تدوين هذا العلم لقُرْبِهِمْ مِنْ مَشَاكَاةِ النُّبُوَّةِ، ولكنه احتيج له في العصر العباسي بعد انتشار رقعة الإسلام واختلاط المسلمين العرب بغيرهم، ونقل الفلسفة الإغريقية والمنطق اليوناني إلى المجتمع الإسلامي ولاسيما في عصر المأمون⁽³⁾، قال الشعراني: (ت: 973هـ): (اعلم-رحمك الله- إنَّ علماء الإسلام ما صَنَّفُوا كُتُبَ الْعَقَائِدِ لِيُثْبِتُوا فِي أَنْفُسِهِمُ الْعِلْمَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا وَضَعُوا ذَلِكَ رَدْعاً لِلْخُصُومِ الَّذِينَ جَحَدُوا بِاللَّهِ، أَوْ الصِّفَاتِ، أَوْ الرِّسَالَةِ، أَوْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْخُصُوصِ، أَوْ الْإِعَادَةِ فِي هَذِهِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ كَافِرٍ)⁽⁴⁾.

ولهذا العلم خمسة أسماء: علم التوحيد، وعلم الكلام، وعلم العقائد، وعلم أصول الدين⁽⁵⁾، وعلم النظر والاستدلال⁽⁶⁾.

وهو أرفع العلوم؛ لأنَّه أصل العلوم الدينية ومتعلق بذات الله، وذات رسله عليهم الصلاة والسلام⁽⁷⁾.

ولم يزل مذهب الإمام الأشعري في العقائد هو المعتمد في أغلب الأمصار الإسلامية بما فيها مكة المكرمة، وقد كانت الدولة العثمانية العلية على هذا

(1) المرجع نفسه: 540/5.

(2) الجسر، الشيخ محمد بن حسين، الحصون الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية، منشورات نور محمد، كارخانة تجارت كتب آرام باغ، كراچی، ص: 7.

(3) السعدي، د. عبد الملك عبد الرحمن، شرح النسفية في العقيدة الإسلامية، ط2، دار الأنبار للطباعة والنشر، بغداد، 1420هـ-1999م، ص: 9.

(4) الشعراني، اليواقيت والجواهر: 19/1.

(5) ينظر: السعدي، المرجع السابق: 8، وينظر: عليان، د. رشدي محمد ود. قحطان عبد الرحمن الدوري، أصول الدين الإسلامي، بغداد، 1417هـ-1996م، ص: 6-7.

(6) الجنابي، د. مراد عبد الله، سعادة الأنام بشرح عقيدة العوام، ط1، 1426هـ-2006م، ص: 30.

(7) ينظر: التفقازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (ت: 791هـ)، شرح العقيدة النسفية، المطبعة العثمانية، 1326هـ-18-17.

المذهب، لذا فقد كانت مكة المكرمة موئلاً لطلبة هذا العلم، وكان من المبرزين في تدريس هذا العلم السيد عباس المالكي (ت: 1353هـ) الذي تخرج على يديه عشرات الطلبة¹، وتصدر الإشارة هنا إلى أنّ علّماء ذلك الزمان لم يوجد عندهم ما يسمى في عصرنا بـ "التخصص الدقيق" فكانوا يُدرّسون جميع العلوم الشرعية ويجيزون بها إجازة عامة، ولكن هناك بعض التفاوت، فمنهم من يأخذ جميع العلوم الشرعية ولكنه يتعمق في علم الأصول، أو علم الفرائض، أو يُدرّس تلك العلوم ولكنه يأخذ بحظ أوفر من الأدب شعره ونثره.

وهكذا نجد جميع العلماء الذين كانوا يتصدّون للتدريس يُدرّسون العقائد لأنّها مادّة أساسية، وهي غالباً تكون في شرح العقيدة النسفية، أو في منظومة عقيدة العوام للسيد أحمد المرزوقي المالكي المكي (ت: 1262هـ)*.

المطلب الرابع: الفقه وأصوله

أصول الفقه: (هو العلم بالقواعد والأدلة الإجمالية التي يتوصل بها إلى استنباط الفقه)⁽²⁾، والعلاقة بينه وبين الفقه (أنهما يتفقان على أنّ غرضهما التوصل إلى الأحكام الشرعية إلّا أنّ الأصول تبين مناهج الوصول وطرق الاستنباط، والفقه يستنبط الأحكام فعلاً على ضوء المناهج التي رسمها علم الأصول وتطبيق القواعد التي قرّرها)⁽³⁾.

وبعد أن ألفت الكثير من كتب أصول الفقه انتهى المطاف إلى السُّبُكِيِّ: تقي الدين السبكي وابنه تاج الدين السبكي الذي ألّف كتاباً سمّاه: جمع الجوامع، فطارت

(1) ينظر: المالكي، فهرست الشيوخ: 11.

* وهي مطبوعة بشروح عدة منها شرح السيد محمد بن علوي المالكي، ولعل للعلماء قبله شروح عليها لم تقع تحت أيدينا. (2) د. عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ط5، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، 1394هـ-1974م: ص9، وينظر: المدرس، عبد الكريم محمد، صفوة اللآلي من مستصفي الإمام الغزالي في أصول الفقه، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1406هـ-1986م: ص4. (3) زيدان، الوجيز في أصول الفقه: 10.

شهرته في الآفاق ووضعت عليه كثير من الشروح والحواشي⁽¹⁾، وقد اشتهر كثير من علماء مكة بالأصوليين وبرواية كتاب جمع الجوامع بأسانيدهم كابراً عن كابر إلى السبكي ويمنحون بذلك إجازات خطية وشفاهية ومنهم الشيخ عباس بن عبد العزيز المالكي⁽²⁾، والشيخ أمين سويد الدمشقي (ت: 1355هـ) الذي بقي يُدرّس هذا العلم في مكة أربع سنوات⁽³⁾.

وأما ما يخص الفقه فإنّ المذهب الفقهي للدولة العثمانية هو مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ◀ (ت: 150هـ)⁽⁴⁾، ولكن الدولة لم تتعصب له وتنبذ غيره بل كانت تدعم بقية علماء المذاهب الأربعة ولاسيّما في مكة المكرمة فكانوا يقيمون حلقاتهم في المسجد الحرام، فقد كان أحمد ناضرين يدرس الفقه الحنفي وكذلك الشيخ أحمد هرساني، وكان الشيخ جمال مالكي يدرس الفقه المالكي في حين كان الشيخان إبراهيم فطاني والشيخ اسعد الدهان يدرّس الفقه الشافعي⁽⁵⁾.

يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان: (لقد تميز المسجد الحرام في هذا القرن من جملة ما يتميز به بكثرة عدد الفقهاء والمدرسين من كل مذهب، واكبتها كثرة عدد الطلاب، وتعدّد فنون التعليم به، وكان جديراً أن يُدعى "الجامعة المفتوحة" حيث التعليم فيه متاح للجميع، وفي جميع العلوم والفنون، حُرّيّة في الحضور، ويحضر حلقات الدرس طلاب العلم عامة الناس دون شرط أو قيد من سنٍّ أو مستوى فيألى جانب طالب العلم اليافع، الشاب والكهل، حُرّيّة في حضور حلقة هذا الدرس أو ذاك، هذه كلّها مجموعة تفرض الحرص والمواظبة على حلقة درّس معينة والتلمذ على عالم معيّن. بالنسبة للمُدّرّسين حُرّيّة تامة في اختيار تدريس مادّة أو موادّ متعدّدة يحكمها في المدرّس إجادته وتفوقه فيها، ما اتسع له الزمان. حُرّيّة تامة في اختيار كتاب الدراسة، وإن كان هذا في الغالب خاضعاً للاختيار القائم على المشاورة بين المدرّسين

(1) ينظر: المالكي، محمد بن علوي، القواعد الأساسية في أصول الفقه، ط1، جدة، 1419هـ: ص4-5.

(2) ينظر: المرجع نفسه: 7.

(3) ينظر: المالكي، فهرست الشيوخ: 102.

(4) السباعي، تاريخ مكة: 665/2.

(5) ينظر: www.makkawi.com

والطلاب، والتحقق من مستواهم، وكثيراً ما يدرس عالم من العلماء لفرق وجماعات متباينة المستويات وحينئذ يكون لكل مجموعة كتاب يتناسب مع مستواهم العلمي في زمنٍ مخصص بهم⁽¹⁾.

وقد ألف كثيرٌ من هؤلاء العلماء في الفقه وأصوله وأبرز آثارهم:

1- الشيخ محمد الخضر الشنقيطي: أنوار النفحات شرح نظم الورقات في الأصول، ومرتقى الوصول إلى علم الأصول⁽²⁾.

2- فضيلة الشيخ محمد علي بن حسين المالكي (ت: 1368هـ): تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية، وانتصار الاعتصام بمعتمد كل مذهب من مذاهب الأئمة الأعلام، ورَدّ الجهلة وأهل الغرّة في اتباع قول من يرد المطلق ثلاثاً في مرة، وطوالع الهدى والفضل بتحذير المسلمين عن الإعلام وقت الصلاة بضرب الناقوس والطبل، وتقارير على همع الهوامع شرح جمع الجوامع، وتقارير على شرح المحلّى لجمع الجوامع في الأصول، والمقال في ردّ سُنيّة الصلاة بالنعال، وفتاوى النوازل العصرية⁽³⁾.

المطلب الخامس: السيرة النبوية والتاريخ

السيرة: (ترجمة حياة شخص ما، أو تاريخ حياته، غير أنّه إذا أُطلق لفظ السيرة إنّما يُراد بها: ترجمة حياة النبي ﷺ)، حتى إنّها أصبحت علماً على علمٍ قائم بذاته هو علم السيرة⁽⁴⁾.

وتبرز أهمية السيرة من خلال الآتي⁽⁵⁾:

1- كونها سنن فعلية، والسنن الفعلية أقوى من السنن القولية.

2- إنّها تتحفنا بسلوك مثالي معصوم.

(1) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 83.

(2) ينظر: الكردي، التاريخ القويم: 535/5-536.

(3) ينظر: الكردي، التاريخ القويم: 542/5-543.

(4) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، 1402هـ-1982م: ج2/ص1012.

(5) الأحمد، د. أحمد محمود، مدخل إلى دراسة السيرة النبوية الهادية، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1394هـ: ص2-4.

- 3- إنها تمدّ المسلم بما يسعفه في فهم كتاب الله تعالى.
- 4- إنها تعين على نبذ الاختلافات، وتجمع الكلمة، وتوحد الصف على منهج واحد.
- 5- إنها تعلمنا كيفية الدعوة إلى الله.
- 6- قوة تأثيرها في النفوس إذ إنها تترك من الأثر مالا تتركه نصوص الأوامر والزواجر المباشرة؛ لكونها قصص واقعية، والقصة أكثر تأثيراً لكونها ترسم في الذهن.

قلت: وأضيف إلى ذلك:

- 7- هيمنتها الروحية وأخذها بالقلوب المؤمنة إلى بناء مجتمع إسلامي حضاري عالمي.

وكان الشيخ أحمد بن زيني دحلان (ت: 1304هـ) مفتي مكة من كبار علماء السير والتاريخ فله من الكتب: السيرة النبوية، والفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، وخلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام⁽¹⁾، وكان المكيون يُدرّسون أمّهات الكتب المعتمدة في هذا العلم ويجيزون بها، فقد كان الشيخ عمر حمدان المحرسي (ت: 1368هـ) يُدرّس: الشمائل المحمدية للترمذي، وسيرة ابن هشام، والمواهب اللدنية، وألفية العراقي⁽²⁾، في حين كان الشيخ محمد العربي بن التبان (ت: 1390هـ) يُدرّس سيرة ابن هشام، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، ووسائل الوصول إلى شمائل الرسول للنبهاني، ومحادثة أهل الأدب في أنساب العرب للشيخ محمد العربي نفسه، ويجيز بها جميعاً إجازة عامة⁽³⁾.

وقد خلّفوا لنا تراثاً عظيماً في هذا المجال، يتضح بعضه فيما يأتي:

- 1- الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي: شَرَحَ نفيس على منظومة في علم السيرة.

(1) دحلان، تقريب الأصول: 5-6.

(2) المالكي، محمد، فهرست الشيوخ: 45.

(3) اللحي، عبد الله بن سعيد بن محمد عبادي، منتهى السؤل على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول ﷺ، دار الحاوي للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ-1998م: ص 13.

2- الشيخ حسين بن عبد الله باسلامة (ت: 1356هـ): تاريخ الكعبة المعظمة، وتاريخ المسجد الحرام، وحياة سيد العرب ➔.

3- السيد عبد الله بن محمد صالح الزواوي (ت: 1343هـ): تاريخ عين زبيدة.

4- الشيخ جعفر بن بكر لبني (ت: 1342هـ): تاريخ عوائل مكة.

المطلب السادس: علومُ اللغةِ العربيّةِ

ولما كانت الخطوة الأولى لفهم النصوص الشرعية لا تتمّ إلا اعتماداً على اللغة العربية وفي ضوء أسسها وأساليبها فإنّ دراسة علومها كانت في الصّدارة دائماً، فقد كانت الألفية وقواعد الإعراب، والثمرات الجنيّة والمتّمة تُدرّس في حلقات العلم وقد كان الشيخ محمد علي المالكي (ت: 1367هـ) المعروف بِسَيِّبَوَيْهِ عصره يُدرّس مثل تلك الكتب وسواها⁽¹⁾، وكذلك الشيخ جمال المالكي (ت: 1349هـ) القاضي بالمحكمة الشرعية الذي درّس الكثير من المتون والمصنفات⁽²⁾، في حين درّس الشيخ محمّد أمين فوده البلاغة⁽³⁾.

وكان لهؤلاء العلماء آثارٌ قيّمة، هي:

1- الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي: نظم في علم المعاني والبيان والبديع، وإبراز الدرّ المصون على جوهر المكنون في علم البلاغة، وسواطع الجُمان في علم التصريف⁽⁴⁾.

2- الشيخ محمد علي بن حسين المالكي: تحفة الخلان في علم البيان، والحواشي النقية على كتاب البلاغة للشيخ محمد طموم وزملائه، وفرائد النحو الوسيمة شرح الدرّة اليتيمة، وتدريب الطلاب في قواعد الإعراب على طريقة السؤال والجواب⁽⁵⁾.

(1) ينظر: المالكي، فهرست الشيوخ: 132.

(2) ينظر: المرجع نفسه: 40.

(3) ينظر المرجع نفسه: 147.

(4) ينظر: الكردي، التاريخ القويم: 536/5-537.

(5) ينظر: المرجع نفسه: 542/5.

- 3- السيد عباس بن عبد العزيز المالكي: تحفة الأخوان في علم البيان⁽¹⁾.
 4- الشيخ جعفر بن بكر لبني: العقود المتألثة شرح أرجوزة ابن شحنة في المعاني والبيان والبديع⁽²⁾.

الأدب وفنونه

المراد بالأدب: الشعر والنثر⁽³⁾.

لم تكن علاقة مكة المكرمة بالأدب شِعْرَه، ونَثْرَه وليدة القرون المتأخرة، وإنما هي قديمة، تمتد جذورها إلى أعماق العصر الجاهلي، إذ عُرِفَت مكة بشعرائها الفحول، وخطبائها المَقَوَّهين الذين حفلت بهم كتب التاريخ والأدب أمثال عبد الله بن الزبيري، وأبي طالب بن عبد المطلب والزيير بن عبد المطلب وغيرهم⁽⁴⁾. ولما كانت مكة المكرمة أرقى المراكز الأدبية العربية فقد كانت مقصداً لكل شاعر يبغى الشهرة، حتى إنَّ المعلقات وهي أنفس الشعر عُلقَت على الكعبة المشرفة⁽⁵⁾. ولكن ممَّا يؤسف له أنَّ صنعة الأدب قد عانت فتوراً قوياً في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وقد عزا محمد طاهر الكردي ذلك إلى انشغال الأدباء بمطالب الحياة، فقال: (ونعتقد لو تفرَّغ أدباؤنا لخدمة الشعر والأدب والكتابة لكانت إنتاجاً تهم عظمة، لكنهم اشتغلوا بمطالب الحياة في الوظائف والأعمال)⁽⁶⁾، في حين عزا محمد عمر رفيع فتور الحركة الأدبية إلى اتجاه التدريس في المسجد الحرام نحو العلوم الدينية فقط فقال: (فحلقات العلم في المسجد الحرام اتجهت نحو العلوم الدينية والفقهية)⁽⁷⁾، قال الأستاذ العامودي: (الشعر الذي كان يُقال عبارة عن كلمات

(1) المرجع نفسه: 543/5.

(2) المرجع نفسه: 545/5.

(3) ينظر: الشريف الجرجاني، التعريفات: 15، ومحمد المجنوب وعطية سالم: الأدب العربي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، 1387هـ: ص 8.

(4) ينظر: ابن سلام، محمد الجمحي (ت: 231هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة: ج 1/ ص 133-244.

(5) ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م: 2/ ص 406.

(6) التاريخ القويم: 14/6.

(7) محمد عمر ر فيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط 1، منشورات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، 1401هـ-1981م: ص 327.

منظومة مُقفاة لا تعرف إحكام الوضع، ولا حسن الأداء؛ لأنَّ الإحساس في المجتمع المكي من هذه الناحية قد وَصَلَ من الفتور إلى درجة الصفر⁽¹⁾.

غير أننا لم نعدم في هذه المرحلة أدباءً كان لهم بعض الأثر في صفحة الأدب أمثال الشاعر عبد الواحد الجوهرى الشهير بـ "الأشرم" والمكى بأبي الحسن وهو من مواليد نهاية القرن الثالث عشر الهجرى وله أبيات غزلية مطلعها:

على جيد هذا الطي فليُنْظَمْ الدَّرُّ
كَمالُهُ أبياتٌ في الهجاء منها:

بُلَيْتُ بَقُومٍ كالبهائم لَمْ يَعُو
ولو شاء ربي خَصَّهم بثلاثة:
أراذل قومٍ في صفات أكابر
قرونٌ، وأذيال، وشقَّ حوافر
وله أيضاً بيتان، وهما:

تصوّرت بدر التّم، مُذْ غاب مؤنسى
محجبة عني الغمام بذيله
أنيساً، وقلت: البدْرُ منه قريبُ
فوا عَجَباً حتى الغمام رقيبُ⁽³⁾
وقد توفي الأشرم عام 1311هـ⁽⁴⁾.

ومن نظم الشعر في ذلك العصر الشيخ أحمد نظيف (ت: 1325هـ، 1326هـ)، وكان رجلاً أنيقاً في ملبسه ومطعمه ومشربه وكان يَعْمَل في المحاماة، وبسبب ما غَضِبَ عليه الشريف عون الرفيق فنفاه إلى جدة وظل بها حتى وفاة الشريف ثمّ رجع إلى مكة، وحُفِظَتْ له أبيات أرّخ بها بناء المرحوم العلامة الشيخ رحمة الله الدهلوي لمسجده "بالخندريسة" وهي:

على أيمن الدانين بالسّفْح من كدا
دعائمه شيدت على البرّ والتقوى
أحاطت به الأنوار من كل جانب
بناءُ الهمامُ الحبر ذو الفضل والندى
مقامٌ كريمٌ للمصلّى تجدّدا
وأرجاؤه للدين والعلم والهدى
وطاب لأهل العلم والرشد موردا
ولا غرو قد أضحى إماماً مجدّدا

(1) المرجع نفسه: 330.

(2) رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجرى: 331.

(3) المرجع نفسه: 331-332.

(4) المرجع نفسه: 332.

فلله ما أبداه ذا البحر في الوري
له الفوز ما قال "النظيف" مؤرخاً
من النفع في نشر العلوم وشيدا
بما قال "أنشا رحمة الله مسجدا" (1)
وهناك شعراء آخر مثل: الشيخ أحمد بن أمين بيت المال المتوفى مطلع القرن الرابع
عشر، والشيخ عبد الجليل برادة المدني (ت: 1325هـ) (2)، والشيخ عثمان راضي بن
محمد بن أبي بكر بن محمد الراضي (ت: 1331هـ) (3).
ولم يكن النشر أحسن حالاً من الشعر، على أنّ الطاغبي على أسلوبه كان
السجع (4).

المطلب السابع: المراكز الفكرية

هي الأماكن التي كان العلماء يُلقون فيها دروسهم، والأماكن التي يقصدها طلبة
العلم للاستزادة من المعرفة وتشتمل على:

1- المسجد الحرام: لم تزل المساجد منذ صدر الإسلام المراكز الرئيسية لتدريس العلوم
الشرعية، وقد حثّ النبي ﷺ على طلب العلم فيها بقوله: ﴿ما تجالس قوم في بيت
من بيوت الله ﷻ يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حُفَّت بهم الملائكة، وغشيتهم
الرحمة، وذُكِرَ لهم الله فيمن عنده﴾ (5)، ولا يخفى أنّ للمسجد الحرام -أهمية فكرية
تتناسب مع منزلته الروحية، ولعل أشهر مجالس العلم فيه في صدر الإسلام مجلس
سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وكان على يسار الداخل إلى زمزم (6) حين
كانت ظاهرة.

واستمر المسجد الحرام يؤدّي وظيفته كمركز إشعاع فكري يقصده الراغبون في
العلم من جميع أنحاء المعمورة، فبقى التعليم فيه على وتيرته التي ورثها من القرون
السابقة يتلخّص في طلب العلم في حلقات الدروس التي ينظّمها العلماء التي كان

(1) المرجع نفسه: 333-334.

(2) ينظر الكردي، التاريخ القويم: 5/6-13.

(3) ينظر: ربيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري: 334.

(4) ينظر: المرجع نفسه: 328.

(5) مسلم، الصحيح: 4/2074 رقم 2699، وابن حبان، الصحيح: 45/3 رقم 768، والأجري، أبو بكر محمد بن الحسين (ت: 360هـ)، أخلاق
حملة القرآن، تحقيق: د. غانم قدوري حمد، ط1، مطبعة الخلود، بغداد، 1409هـ-1989م: ص50 واللفظ له.

(6) ينظر: الأزرق، أخبار مكة: 2/60.

يعبّ بها المسجد الحرام ليلاً ونهاراً⁽¹⁾، وقد أحصيت تلك الحلقات فبلغت في بعض الأوقات نحو 120مئة وعشرين حلقة تتناوب التدريس في الآصال والبكور، وبين أطراف الليل والنهار في نشاطٍ وزحام⁽²⁾.

وقد كان الحرم المكي بمثابة الجامعة المتكاملة، وتبدأ الدروس بجامعة الحرم من الصباح حتى بعد صلاة منتصف النهار "الظهر"، والدروس بعد صلاة الظهر لا تختصّ بوقت معين، مثل: شرح بعض الأحاديث أو إلقاء درسٍ في أصول الفقه، أو في بعض علوم الآلة كالنحو والصرف والمنطق⁽³⁾.

أمّا التدريس بين العشاءين فلا يتسع الوقت بعد غروب الشمس حتى صلاة العشاء إلاّ لدَرْسٍ واحدٍ، يكون غالباً في الفقه الإسلامي وهي كدروس الصباح، وبعضها يُخصّص لتدريس أصول الفقه، أمّا الدروس التي تكون بعد صلاة العشاء فتكون في العلوم الأخرى كالتّي تُدرّس بعد الظهر، وتتكاثر الدروس والحلقات بالمسجد الحرام شيئاً فشيئاً من بعد الساعة الرابعة⁽⁴⁾.

ولم يكن عدد الطلاب في كل حلقة يقل عن أربعين طالباً، بل إنّ بعض الحلقات يبلغ عددها مائة نفس⁽⁵⁾.

وفيما يلي سرّد لبعض أسماء العلماء وبيان لمواضع حلقاتهم في المسجد مع المواد التي كانوا يُدرّسونها: ⁽⁶⁾

1- حلقة الشيخ عباس بن عبد العزيز المالكي (ت: 1353هـ): القضاء والأحكام في رواق باب السلام.

2- حلقة الشيخ جمال المالكي (ت: 1349هـ): الفقه المالكي في حصوة باب أجياد.

(1) ينظر: السباعي، تاريخ مكة: 653/2-654.

(2) السباعي، تاريخ مكة: 657/2.

(3) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 84.

(4) ينظر: المرجع نفسه: 84.

(5) ينظر: الكردي، التاريخ القويم: 522/5.

(6) ينظر: أبكر، المرجع السابق: 86-88.

3- حلقة الشيخ اسعد الدهان (ت: 1338هـ): في الفقه الشافعي في رواق باب السليمانية.

4- حلقة الشيخ درويش بن حسن عجمي (ت: 1346هـ): في الفقه الشافعي في حصوة باب الزيادة.

5- حلقة الشيخ عابد بن حسين المالكي (ت: 1341هـ): في الفقه المالكي في باب أجياد.

6- حلقة الشيخ جعفر بن بكر لبني (ت: 1342هـ): في الفقه الحنفي في باب الزيادة.

فضلاً عن كثير من الحلقات التي لم توثّق أماكن انعقادها، كحلقة الشيخ حسين الحبشي (ت: 1330هـ)، وحلقة الشيخ عبد الحميد قدس (ت: 1334هـ)⁽¹⁾.

قلت: إنّ هذا العدد الكبير من الشيوخ وطلبة العلم يُعطينا صورة واضحة عن مدى النشاط الفكري الذي شهده هذا العصر، وإنّ كثرة الشيوخ تؤدي إلى تعدّد وجهات النظر وإلى التنوع الفكري وذلك يسهم في إثراء الفكر الإسلامي وهو مظهر من مظاهر كماله، ولكل عالم مفهومه - حول الفرعيات طبعاً - ولا يصح أن نجعل المفاهيم مفهوماً واحداً لأنّ ذلك تحجير للواسع، وتحميد للفكر الإسلامي ونتمنى أن تعود هذه الحلقات إلى سابق عهدها بعد أن كادت تندر في المسجد الحرام.

2- المدارس: بدأت المدارس في هذا العهد تكثر وتتوسع وتتنوع وأهمها:

أ- المدرسة الرشيدية: في هذا العهد عني العثمانيون قبل حركة الدستور في أواخر القرن الثالث عشر بإنشاء مدرسة على الطريقة الحديثة لتعليم اللغة التركية والرياضيات والتاريخ، وندب للتدريس فيها بعض الأتراك ثم أضيف إليهم بعض المدرّسين في مكة وكانوا يلقنون دروسهم باللغة التركية حتى إنّ قواعد اللغة العربية يشرحونها باللغة

(1) ينظر: أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 88-90.

التركية، وقد قيل يومها: إِنَّ غَرَضَ الأتراك من إنشائها هو تترك العرب؛ لهذا لم يُقبل على الانضمام إليها إلا أبناء الموظفين من الأتراك، وبعض العلية ممن كانت تربطهم بالعثمانيين روابط ذات قيمة، أما طلبة العلم من أبناء العلماء والشعب والمجاورين فلم يكن إقبالهم عليها إلا محدوداً⁽¹⁾.

وقد أنشأت المدرسة في باب الدريّة وسمّيت المدرسة الرشيدية، ثم انتقلت إلى مكان مطبعة الحرم سابقاً، ثم انتقلت إلى القبان بالمدعاة، ثم إلى سوق المعلاة في بناية المدرسة السعودية التي هدمت في أعمال توسعة الشوارع فيما بعد⁽²⁾.

ب- المدرسة الصولتية: وفي هذه الأثناء هاجر إلى مكة علامة من أفذاذ الهند المجاهدين ضد الاستعمار الانكليزي هو الشيخ محمد رحمة الله العثماني، ففكر في تأسيس مدرسة لتعليم الدين والعربية والقرآن فبادرت سيدة من مثرات الهند تُسمّى "صولت النساء" إلى مساعدته فشرع يبني مدرسته التي سمّاها "صولتية" نسبةً إلى اسم تلك المرأة⁽³⁾.

وأقبل الطلبة على مدرسته إقبال الضامنين إلى مناهل العلم، كما أقبل بعضهم على دروسه التي خَصَّصها في المسجد، فأنتجت جهوده في حلقاته بالمسجد وفي بيته بحارة الباب بالهندريسة إنتاجاً خَدَمَ البلاد من ناحيتها العلمية خدمةً لا تزال آثارها ماثلة إلى اليوم في أشخاص الكثير من أجيال العلماء وأصحاب المناصب الدينية والقضائية، ومن أشهر من أنجبتهم جهود هذا الرجل علماء من آل مرّداد والمفتي والعجمي والغمري والطيب والدهان والدهلوي والدحلان، وبابصيل والزواوي والكتبي وكمال والقاري، وأنجب المشايخ: حسن مشاط، وعيسى رواس، ويحيى أمان وغيرهم من علماء مكة⁽⁴⁾.

(1) السباعي، تاريخ مكة: 654/2.

(2) المرجع نفسه: 654/2.

(3) ينظر: الكردي، التاريخ القويم: 305/6.

(4) السباعي، المرجع السابق: 654/2-655.

ج: المدرسة الفخرية: ونشط الشيخ عبد الحق قاري أحد الأساتذة في الصولتية لتقليد أستاذه فأسس في عام 1296هـ "المدرسة الفخرية" بجوار باب ابراهيم ودعا أثرياء الهند لمساعدته، فأجيب طلابه وشرعت مدرسته تؤدّي دورها جيداً في خدمة البلاد⁽¹⁾.

د- مدرسة متطورة: وأسس الشيخ عبد الكريم الطرابلسي مدرسة بقاعة الشفاء، وهي أول مدرسة عربية عنيت بتدريس التلاميذ في مكة جلوساً على مقاعد الدراسة أمام السبورة وكان يساعده بعض الأساتذة السوريين⁽²⁾.

هـ: مدرسة بُرْهان الاتحاد: عندما فاز الدستوريون في انقلابهم الثاني عام 1327هـ شرعوا يؤسسون مدارس في الحجاز، فأنشؤوا في مكة مدرسة أمام باب الصفا سموها مدرسة "برهان الاتحاد"، ثم بنوا لها أمام قصر المالية في أحياء بناية نقلوها إليها⁽³⁾.

و: مدارس الفلاح: أُسِّسَتْ هذه المدارس على يد المحسن الكبير الحاج محمد علي زينل، إذ بنى أول تلك المدارس في مدينة جدة بعد عام 1323هـ، وبعدها بسبعة أعوام، أي في سنة 1330هـ أسس مدارس الفلاح بمكة المكرمة⁽⁴⁾.

قلت: وما ورد في تاريخ مكة للسباعي من أنّ هذه المدارس قد أُسِّسَتْ عام 1240هـ⁽⁵⁾ ليس صحيحاً، ولعلها هفوة طباعية.

وقد جعل الحاج محمد علي زينل السيد محمد حامد مديراً لتلك المدرسة وكان موقع تلك المدرسة في حارة القشاشية بدار الشريف علي باشا حاكم مكة آنذاك، ثم انتقلت إلى حارة الباب بدار آل نصيف، ثم عادت مرةً أخرى إلى القشاشية، ثم انتقلت إلى الشبيكة عام 1368هـ، ثم انتقلت إلى مبنى جديد وجميل بحجّ الزهة في الموقع الذي كان يُسمّى ساحة إسلام "على المسمى القديم" بعد أحواش صدقه كعكي وبالضبط في مكان الملعب الرياضي القديم⁽⁶⁾.

(1) السباعي، تاريخ مكة: 655/2.

(2) المرجع نفسه: 655/2.

(3) المرجع نفسه: 655/2.

(4) ينظر: الكردي، التاريخ القويم: 40/6-41-24، وأبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 106.

(5) ينظر: 656/2.

(6) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 106-107 بتصرف يسير.

وقد استقدم مؤسس تلك المدرسة كبار العلماء من أجل التدريس فيها، قال الكردي: (ولقد كان التعليم فيها بلغ قمة المجد فكانوا يُعلِّمون الطلبة بجدٍّ وإخلاص، ويُرشدونهم إلى التربية العالية والأخلاق الشريفة، وكان يُدرّس فيها جميع العلوم الدينية والعصرية بمختلف أنواعها، وكان فيها قسم خاص بتحفيظ القرآن الكريم تحفيظاً جيداً لم يُعهد مثله ولا يوجد اليوم مثله)⁽¹⁾.

وقد أنجبت مدارس الفلاح عشرات العلماء، ومثلهم ممن تسنّموا مناصب عليا في الدولة⁽²⁾، ولقد صدق الحاج زينل حين قال: (إذا لم يكن لي من الأولاد ذريّة، فإنّ لي من الأبناء الكثير، وهم طلبة مدارس الفلاح)⁽³⁾.

3- الكتاتيب: جمع كُتّاب: (وهو موضع تعليم القراءة والكتابة وهو من المؤسسات التعليمية المهمة التي وُجدت في المجتمع الإسلامي لتثقيف الصغار، وتربيتهم التربية الإسلامية الجيدة)⁽⁴⁾.

ولما كان المجتمع المكي مجتمعاً إسلامياً عريقاً، ملتزماً بأصول الشرع الشريف، فإنّه مع حبه للعلم لم يرتض أن تخالطه بعض المخالفات الشرعية، لذلك فإنّه يفصل أماكن تعليم البنين عن أماكن تعليم البنات، هكذا كانت الكتاتيب.

أولاً: الكتاتيب الخاصة بالبنين: وهي كثيرة جداً، أبرزها:

أ- كُتّاب الشيخ علي عبد الحيّ: تأسّس عام 1295هـ، وعلى انقاضه تأسست المدرسة الفخرية العثمانية، وكان مقرّه في حارة أجياد⁽⁵⁾.

ب- كُتّاب الشيخ عبد الله حمدوه السناري: تأسّس سنة 1300هـ وكان مقره في باب العمرة، وقد قام هذا الكُتّاب في وقت لم يكن بمكة من المدارس النظامية سوى المدرسة الصولتية التي تأسست عام 1298هـ، كما أنّ مكانة الشيخ عبد الله حمدوه

(1) التاريخ القويم: 43/6.

(2) ينظر: المرجع نفسه: 43/6.

(3) أبكر، المرجع السابق: 655/2.

(4) المرجع نفسه: 96.

(5) المرجع نفسه: 97.

العلمية بالتدريس فيه وتنظيمه له، قد أكسبه شهرة علمية كبيرة، ومكانة عالية جعلت الشيخ محمد علي زينل يجعل منه نواة لمدرسة الفلاح⁽¹⁾.

ج: كُتِّبَ الشيخ أحمد السركتي: تأسَّس في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وقد انضم طلاب هذا الكُتَّاب إلى مدرسة الفلاح عند تأسيسها⁽²⁾.

د- كُتِّبَ الشيخ أحمد عجيمي: تأسَّس في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وكان في حارة القشاشية⁽³⁾.

هـ- كُتِّبَ الشيخ عبد المعطي إبراهيم النوري: تأسَّس في أوائل القرن المذكور وكان في حارة الشبيكة⁽⁴⁾.

و- كُتِّبَ الشيخ أحمد فودة: تأسَّس في أوائل القرن المذكور وكان في حارة أجياد⁽⁵⁾.

ز- كُتِّبَ الشيخ أمين الماحي: تأسَّس في أوائل القرن المذكور وكان في الشبيكة⁽⁶⁾.

ح- كُتِّبَ الشيخ الخزيم: تأسَّس في أوائل القرن المذكور، ويطلق عليه "كُتَّاب مقراة الفاتحة"، ومقرّه مسجد مقراة الفاتحة بمنطقة المدعى⁽⁷⁾.

وغيرها من الكتاتيب: وقد عزا السيد محمد طاهر الكردي كثرة الكتاتيب في هذه المرحلة الزمنية إلى أربعة أمور⁽⁸⁾:

-الأول: قلة السكان وعدم انتشار التعليم في البلاد.

-والثاني: قلة مصاريف الكتاتيب ونفقاتها، إذ يكفي للكُتَّاب الواحد أستاذ أو أستاذين، ولا يحتاج لحادم لأنّ التلامذة في الزمن السابق كانوا يقومون بالخدمة، كما كان أجودهم في القراءة والكتابة يُساعد أستاذهم بتعليم إخوانه، وكانوا يسمّونه العريف أو ريس الفرقة.

(1) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 97.

(2) المرجع نفسه: 98.

(3) المرجع نفسه: 98.

(4) المرجع نفسه: 98.

(5) المرجع نفسه: 98.

(6) المرجع نفسه: 98.

(7) المرجع نفسه: 98.

(8) التاريخ القويم: 519/5-520.

-والثالث: وهذا أمرٌ مهم جداً، لم تكن الحكومة في الزمن السابق تأخذ من الغريب الذي يُريد الإقامة في البلد رسماً سنوياً على إقامته بل كان الغريب إذا أراد الإقامة بأحد الحرمين الشريفين لا يمنع من ذلك، ولا تطالبه الحكومة بدفع رسم على إقامته. ومن هنا كان بعض فضلاء الأعراب كالمصريين والسودانيين والمغاربة يقيمون في مكة أو في المدينة ويقتحمون الكتائب لتعليم أبناء البلاد القراءة والكتابة، وتحفيظ القرآن الكريم، وبعض علمائهم يرغب في التدريس بالمسجدين بمكة والمدينة فيحضر في دروسهم كثير من الناس حلقات، حلقات فينتفعون بعلمهم.

والرابع: وهذا أمرٌ مهم أيضاً، إذا فتح كُتّاب أو فتح مدرسة لا يحتاج استئذان من الحكومة، بل إنه يجد من جميع أهل البلاد مساعدة وإقبالاً وتقديراً.

قلت: وأضيف أمراً خامساً وهو حرص أهل مكة على تعليم أبنائهم وتنشئتهم النشأة الإسلامية الصحيحة.

ثانياً: الكتائب الخاصة بالبنات: وكان للفتيات كتائب موزعة في بعض أحياء مكة، أشهرها:

1- كُتّاب السيدة آشية: كان تأسيسه في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، ومقرُّه منزل مؤسّسته بالمروة⁽¹⁾.

2- كُتّاب الشامية للبنات: كان تأسيسه في أوائل القرن المذكور بالشامية⁽²⁾.

3- كُتّاب الفقيهة فاطمة هانم التركية: أُسس عام 1320هـ وكانت تُدرّس فيه بدارها بحي أجياد قرب المستشفى العام الحالي.

4- كُتّاب الفقيهة خيرية خوجة: تأسس عام 1328هـ في بئر بليلة بأجياد⁽³⁾.

(1) أبكر، صور من تراث مكة المكرمة: 100.

(2) المرجع نفسه: 100.

(3) المرجع نفسه: 102.

5- كُتِّبَ الفقيهة آمنة هانم البورصلية: تأسس عام 1330هـ واستمرّ نحو عشرين عاماً، وآمنة هذه من أصل تركي من بلدة بورصة بتركيا، وكان بمنزلها الصغير في بئر بليلة⁽¹⁾.

وكانت المواد التي يتعلمها الفتيات بسيطة وهي في الغالب عبارة عن تعليم القراءة والكتابة، وقراءة القرآن الكريم وحفظه والتجويد والحساب والإملاء والخط ومبادئ العلوم الدينية والنبوية كالأخلاق، وبعض الأشغال اليدوية كالتفصيل والتطريز بالإبرة والطبخ وكانت تصل أعدادهن من 20 إلى 70 طالبة⁽²⁾.

- البيوت العلمية: وقد فتح كثيرٌ من العلماء بيوتهم كمدراس، ومن أشهر تلك البيوت العلمية: آل الرئيس وقد عُرف منهم في ذلك العهد درويش بن سليمان، وصالح بن إبراهيم، وعبد الرحمن بن محمد، وعبد الله ومحمد ابنا عبد الرحمن، كما اشتهر بعضهم بالصالح والتقوى⁽³⁾.

واشتهر من بيت الدهان: الشيخ اسعد دهان (ت: 1321هـ)، والشيخ عبد الرحمن دهان (ت: 1337هـ)، ولا تزال أعقابهم إلى اليوم معروفين ببيت الدهان في شعب عامر، والتقا وأجياد⁽⁴⁾.

وكان بيت المالكي بيت علم وفضل منذ مئات السنين وقد ورث أهله العلم كابراً عن كابرٍ، وكان بيتهم مقصداً لطلبة العلم من جميع أنحاء العالم، واشتهر من هذا البيت في هذه المرحلة السيد عبد العزيز المالكي (ت: 1324هـ)، وابنه السيد عباس المالكي (ت: 1353هـ)⁽⁵⁾، وظل هذا البيت العريق يجود بخيار العلماء الصالحين، وسنأتي على ذكر بعضهم في المبحث التالي - إن شاء الله -

المطلب الثامن: الإجازات العلمية

(1) المرجع نفسه: 102.

(2) المرجع نفسه: 102، وينظر: رفيع، مكة في القرن الرابع عشر الهجري: 319.

(3) السباعي، تاريخ مكة 655/2-656.

(4) السباعي، تاريخ مكة: 656/2.

(5) ينظر: المالكي، عباس بن علوي، صفحات مشرقة من حياة الامام السيد الشريف علوي بن عباس المالكي، ط1، مطبعة

سفير، الرياض، 1424هـ-2003م: ص25.

بعد أن توضّحت الصورة فيما سبق عن الحالة الفكرية في أواخر العهد العثماني لا بُدّ لنا أن نطلّع على أمرٍ دقيق ومهم، وهو كيف كانت تمنح الشهادات العلمية؟ كانت الشهادات العلمية تمنح للطالب على وفق نظام الإجازات العلمية وهو أن يُدرّس الطالب العلمَ المعيّن على يد عالمٍ مُجاز بذلك العلم، متصلٍ بسلسلةٍ من كبار العلماء حتى إمام ذلك العلم، فمثلاً حين يُدرّسون كتاب الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي يمنحون الطالب الذي أتمّ دراسته إجازة علمية تتصل بالعلماء الذين رَووا هذا الكتاب كابراً عن كابر حتى تنتهي السلسلة إلى الإمام السيوطي رحمه الله، وهكذا الحديث يروونه بأسانيدهم إلى أئمتهم الذين تنتهي سلسلة رواهم إلى حضرة الرسول الأعظم ﷺ

ولذلك فإنّه لم يكن يُعدّ عالماً مَنْ لم يحصل على الإجازة العلمية في علومه، أو تخصّصه على الأقل، وكانت تلك الإجازات إمّا خطية وهو الأكثر، أو شفوية. وتبرز أهميّة الإجازة العلمية من أنّ طالب العلم يصبح علمه مُوثّقاً مأخوذاً عن أفواه الرجال، وتحرّي السند العلمي هو ماحثٌ عليه سلفُ الأئمة الصالح، فقد قال محمد بن سيرين (ت: 110هـ): (إنّ هذا العلم دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم)⁽¹⁾، وبَيَّنَّ سيدنا عبدُ الله بن المبارك (ت: 181هـ) أهميّة الإسناد حين قال: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال مَنْ شاء ما شاء)⁽²⁾.

والإسناد من خصائص الأئمة المحمدية، قال محمد بن حاتم: (إنّ الله قد أكرم هذه الأئمة وشرفها بالإسناد، وليس لأحدٍ من الأمم كلّها قديماً وحديثاً إسناد موصول)⁽³⁾. وقد تبين لي أنّ العلم المسند إلى عدول هو علمٌ مُنَوَّر، وما سواه علمٌ مُجَرَّد، فالعلم المتّصل مُنَوَّر فلا يخبو نوره بطول العهد وبُعد الزمن، لأنّه يروى كابراً عن كابر إلى صاحب الشريعة العزّاء سيدنا محمد ﷺ وهنا تكمن البركة.

(1) القرطبي، أحمد بن عمر (ت: 656هـ)، مقدمة تلخيص صحيح الإمام مسلم، تحقيق: د. رفعت فوزي، د. أحمد محمد الخولي، ط2، دار

السلام، مصر، 1414هـ-1993م: ج1/ص41.

(2) المصدر نفسه: 1/42.

(3) عبد الوهاب عبد اللطيف، المختصر في علم رجال الأثر، ط3، 1371هـ-1951م: ص17.

ومثال العلم المجرد هو ما يُؤخذ من الجامعات أو من بطون الكتب وليس له إسنادٌ مُتَّصِل؛ ولذلك فإنَّ مَنْ أخذ علمه عن الكتب من غير توقيفٍ من عالم فلا يوثق به⁽¹⁾.

ورحم الله القائل:

مَنْ يأخذ العلم عن شيخ مشافهةً
ومن يَكُنْ آخِذاً للعلم من صُحُفٍ
يكن عن الزيغ والتصحيف في حَرَمٍ
فَعِلْمُهُ عند أهل العلم كالْعَدَمِ⁽²⁾
ومن أخذ العلم المنقطع فإنه لن ينتفع به، ولا سيما إذا كان المتلقي مُظلم القلب؛ لأنَّ حامل ذلك العلم قد يكون حمله لغير الله، وهذا المعنى هو ما أشار إليه النبي ﷺ وجعله من علامات قيام الساعة بقوله: ﴿...وَتُفْقَهُ فِي الدِّينِ لغير الله﴾⁽³⁾، ومعناه: أن لا فائدة مَرْجُوَّة من ذلك العلم لفساد الوعاء الحامل له، ولن يقتصر ذلك الفساد على ذلك العالم بل ينتقل إلى المتلقي عنه وتنتقل إليه الظلمة، ومن نتائج تلك الظلمة القسوة، وقد أشار الله سبحانه وتعالى في كتابه إلى قوم لديهم كتابٌ ولكن قلوبهم قاسية، وهم فاسقون، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾⁽⁴⁾، ومن نتائج القسوة الانحراف، ومن نتائج الانحراف التطرّف والغلوّ والعُنف، وواقع الحال اليوم يشهد على ذلك.
إذن فليس هناك من سبيل للعودة بالمسلمين إلى الصِّدْارة وقيادة العالم إلا سبيل العلم النافع الذي يؤخذ من صدور الرجال المُنَوَّرين كابرًا عن كابر إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات ربِّي عليه وعليهم أجمعين.

(1) التجاني، محمد الحافظ، أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية، مطبعة الشرق الجديد بالزقازيق، مصر: ص130.

(2) النازلي، السيد محمد حقي، خزينة الأسرار جلييلة الأذكار، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، 1983م: ص20.

(3) رواه الطبراني في الكبير من حديث طويل: 51/18 رقم 91، قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه عبد الحميد بن ابراهيم وثقه ابن حبان وهو ضعيف وفيه جماعة لم أعرفهم. مجمع الزوائد: 324/7.

(4) سورة الحديد، آية: 16.

ومّا يُؤسّف له أن نظام الإجازات العلمية قد انحسر انحساراً كبيراً في مطلع القرن الخامس عشر الهجري حتى لقد اقتصر على بعض البيوتات العلمية كبيت المالكي.

نظرة نقدية* للحالة الفكرية في هذه المرحلة الزمنية

1- إنّ نشاط الحلقات العلمية وتنوّعها قد أدّى إلى نشاط الحركة الفكرية وتسابق العلماء في تقديم أجود ما عندهم.

2- حرص طلبة العلم على أن ينهلوا العلم من منابعه الأصلية بالسند المتصل فكانوا دعاة للصّلاح والرحمة، ونشر العلم المنوّر بين المسلمين.

3- كان الفقهاء يُعلّمون المذاهب الأربعة فكانت للناس سعة في الأخذ بآراء العلماء الذين كانت فتاواهم بمجموعها تصلح لكل عصر، فالحياة لا تتوقّف وإنّما هي في تطوّر مستمر والاقتصار على مذهب واحد تحجير للواسع.

4- اقتصر التعليم على العلوم الشرعية وغيرها كالفلك والحساب، ولم يتطلّع طلبة العلم إلى دراسة علوم أخرى قطعت فيها الدول العظمى شوطاً كبيراً كالطب والفيزياء والكيمياء واستخراج كنوز الأرض والتسلّح وصناعة السيارات، وعندما أراد بعض الشباب في عهد الحسين الاستزادة من التعليم خارج البلاد أبي ذلك عليهم وقال: (إنّ علومنا تكفيننا)⁽¹⁾، وليس ذلك فحسب بل (عندما تبرّع المستر كراين الثري الأمريكي بترحيل بعض الشباب إلى أمريكا لتعليمهم على حسابه الخاص رفض ذلك؛ لأنه يكره الأجانب ويبالغ في كرههم ويرفض حتى علومهم)⁽²⁾، وقد بقي لذلك آثار سلبية لعشرات السنين حين بقيت التكنولوجيا بعيدة عن بلاد الحرمين الشريفين، ولم تتمكن من الانتفاع من خيراتها بنفسها إلاّ بعد سنوات طويلة.

5- لم تُوفّر الدولة أساليب متطورة للنهوض بالتعليم، ولم ينتفع الحسين من علاقته بالانكليز في سبيل تحقيق ذلك.

* يُخطيء كثير من طلبة العلم حين يتصور أن النقد هو ذكر المثالب والأخطاء فقط، ولكنّ النقد في الحقيقة هو ذكر المحاسن والمساوئ جميعاً.

(1) السباعي، تاريخ مكة: 696/2.

(2) المرجع نفسه: 696/2.

المطلب التاسع: تراجم مشاهير العلماء

نوردُ فيما يأتي تراجم مختصرة لأبرز علماء هذه المرحلة الزمنية مرتبين على وفق سنيّ وفياتهم:

1- الشيخ جمال المالكي: هو العلامة الفقيه النحوي الشيخ جمال بن محمد الأمير بن حسين بن ابراهيم المالكي المولود سنة 1285هـ بمكة المكرمة، والمتوفى بها عام 1349هـ المَدْرَس بالمسجد الحرام، والقاضي بالمحكمة الشرعية بمكة المكرمة⁽¹⁾.

2- الشيخ عبد الله حمدوه: العلامة الفقيه المقرئ المسند الراوية الشيخ عبد الله بن ابراهيم بن مصطفى حمدوه القرشي العمري المالكي السنّاري ثمّ المكي المولود سنة 1284هـ والمتوفى سنة 1350هـ بمكة المكرمة مدير مدرسة الفلاح والمدرس بها، وبالمسجد الحرام⁽²⁾.

3- الشيخ عباس المالكي: العلامة المحقق الأصولي، القاضي السيد عباس بن الإمام والخطيب بالمسجد الحرام السيد عبد العزيز بن الإمام والخطيب بالمسجد الحرام السيد عباس المالكي المكي الحسني⁽³⁾ وُلد بمكة المكرمة سنة 1285هـ، وتُوفي بها سنة 1353هـ شغل منصب وكيل المعارف في عهد الحسين، وعضو مجلس الشورى، والإمام والمَدْرَس بالمسجد الحرام⁽⁴⁾.

4- باسلامة: هو حسين بن عبد الله بن محمد بن سالم باسلامة من آل باداس الكندي الحضرمي المكي، ولد بمكة المكرمة عام 1299هـ-1881م درس التجويد والجغرافيا والحساب والفلك، ومصطلح الحديث والتفسير، والتراجم كما درس الفقه

(1) المالكي، محمد: فهرست الشيوخ والأسانيد: 40.

(2) المرجع نفسه: 103.

(3) المرجع نفسه: 11.

(4) المرجع نفسه: 11.

على يد الشيخ الحبشي وقد أدرك رَدْحاً من العهد السعودي حتى توفي سنة 1356هـ، مُخَلِّفاً وراءه مؤلفاتٍ عدّة منها:

- الجواهر اللّماع. جمع فيه أحكام الإمام محمد بن إدريس الشافعي المنظوم منها والمنثور، وطبعه بمصر (1).

- عمارة المسجد الحرام. مطبوع

- الإسلام في نظر أعلام الغرب. مطبوع

- كتاب يتضمّن ما وقع بين الأئمة الأربعة من الخلاف في الأوقات التي تكره فيها الصلاة.

- الناسخ والمنسوخ من القرآن.

- كتاب في وجوب الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير.

- كتاب في تحريم المتعة والردّ على مَنْ أباحها.

- كتاب في معنى كرامة الأولياء (2).

5- الشيخ المخلّلاتي: هو العلامة المقرئ المسند الشهاب الشيخ أحمد بن عبد الله بن محمد المخلّلاتي الشامي، ثمّ المكي، وُلد سنة 1280هـ، أسّس المدرسة الأحمدية وعيّن مديراً بها وهي تقع بمحلة جرول بمكة، وقد توفي الشيخ المخلّلاتي سنة 1362هـ (3).

6- الشيخ الشنقيطي: هو العلامة المحدّث الشهير أبو المواهب محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد الملقب بما يأبى الجكني الشنقيطي، ولد سنة 1295هـ ببلاد شنقيط، فحفظ القرآن الكريم وأتقن رُسْمَهُ وتجويده، وأتقن القراءات خصوصاً قراءة نافع، ثمّ أقبل على فقه الإمام مالك رحمه الله، وغيره من الفنون والعلوم، وكان تنقل في البلدان الإسلامية حتى توفي بمصر سنة 1363هـ (4).

(1) ينظر: بإسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة: مقدمة المحقق: 15.

(2) بإسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة: 19-20، والكرد، التاريخ القويم: 57/1.

(3) المالكي، محمد: فهرست الشيوخ والاسانيد: 137.

(4) الكرد، التاريخ القويم: 284/6-285.

- 7- الشيخ عيسى رؤاس: هو العلامة الزاهد الورع التقى الصالح الشيخ عيسى بن محمد بن حامد بن عيسى رؤاس المكي الحنفي وُلد سنة 1292هـ بمكة المكرمة، وعمل مُدَرِّساً في المسجد الحرام، ومدرسة الفلاح، توفي سنة 1365هـ⁽¹⁾.
- 8- الشيخ التيجي: هو العلامة المقرئ الشهير السيد أحمد بن حامد بن عبد الرزاق التيجي، ولد سنة 1285هـ، ودرّس بالحرمين الشريفين، ومدرسة الفلاح بمكة المكرمة، وتوفي بمكة سنة 1368هـ⁽²⁾.

(1) المالكي، محمد: فهرست الشيوخ والأسانيد: 91.

(2) المرجع نفسه: 105.